



## عن جذور العنف السياسي العراقي

نشرت هذه المقالة في جريدة الزمان في عددها الصادر في 2002\1\22

تناول العديد من الباحثين العراقيين والعرب ظاهرة العنف السياسي العراقي منذ قديم الازمان وربطوها بالشخصية العراقية وخصائصها.  
اما الدكتور الوردى فقد ركز على الجوانب الاجتماعية والتركيبة للمجتمع وبالالاخص دور القبائل والبدواة وقد قدم ثلاث فرضيات بوصفها مفاتيح لتفسير خصائص المجتمع العراقي:

- 1- فرضية ازدواج الشخصية.
  - 2- فرضية صراع البدواة والحضارة.
  - 3- فرضية التناثر الاجتماعي وقد ضرب امثلة للتدليل على كل واحدة منها.
- ولا شك ان الوردى احد كبار رواد علم الاجتماع وله افكار مثيرة وتحليلات تستحق الاهتمام فضلا عن جرأته الفكرية والاخلاقية لكن الملاحظ انه يورد احيانا امثلة وشواهد تنطبق على مجتمعات اخري ايضا وليس على مجتمعنا وحسب. كما لم يفسر كيف نهضت كبريات الحضارات القديمة في هذا العراق نفسه الذي لم تتغير بينته الطبيعية كثيرا منذ ذلك الزمان. ونضيف انه في الحديث عن البدواتين العراقية والعربية لا يتوقف كثيرا لدي دور البدواة الاجنبية الغازية من مغولية، وتركستانية حيث ان هؤلاء الغزاة احتلوا بلدا كان سكانه في مستوى حضاري متقدم بينما هم في اشد حالات التخلف والحالة العنيفة الدموية والتدميرية. وفي عام 1969 نشر الدكتور علي جواد الطاهر اطروحة اخري في مجلة المثقف العربي مفادها ان الشخصية العراقية تتميز بـ الفوقية والقلق ويقصد بالفوقية الولاء للأسرة أو المحلة أو المدينة أو القبيلة أو الطبقة أو الطائفة أو الايديولوجية والحزب السياسي. ويرى الطاهر (والحديث دوما هو عن عراق ما قبل غزو الكويت والحرب والحظر اذ ان للعقد الاخير حديثا اخر)، ان هذه الانتماءات الجزئية المقطعية تجر وجدان العراقي جرا غير متناسق إلى يوز دلالية مليئة بالمياه الاسنة من الاحقاد. ويرى ان من خصائص الشخصية العراقية الاندفاعات المفاجئة كثار الحلفة. فالعراقي في نظره في حالة من الاستنفار والتربص الدائمة وهو شكاك بكل سلطة جراء ما نزل بالعراقيين من ظلم عبر التاريخ، وهم منظر فون مبالغون في نظر فهم نتيجة عهود الحرمان الطويلة وما تنعكس هذه الظاهرة فيه من تطرف في الكراهية والحب فاذا احب العراقي عبد وادا كره داس بقدميه علي الشخوص والمواضيع نفسها. وهناك ععدة البطل الشعبي قاهر الظلم والمستبدين وما يحاك حول البطل الشعبي من اساطير. اما العنف فانه من صفات السلوكية الفوقية القلقة، فهي تتميز بالعنف في معاملة الخصوم، ولعل السبب في ذلك تراكم المظالم وتجمع الحرمان والانتظار مدة طويلة وخوفا من ضياع الفرصة وشل حركة الخصوم. وترجع هذه الظاهرة إلى الماضي السحيق للسومريين والاكديين والاشوريين والبابليين والامويين والعباسيين.. وفي موضع اخر يضيف الباحث عامل الاحتلالات الاجنبية.

والملاحظ ان الباحث يميز بين العهدين السومري والاكدي فالاطار الفكري السومري في رايه ابداع اول مجتمع اشتركي معيدي عرفه التاريخ قائم علي اسس معبديبة تسميه المجتمع التعاوني الزراعي الاشتركي المعيدي. وقد حاول تكوين نظرة شاملة تجمع ابناء المدينة.. ولكنه لم يحرز نجاحا وترك في الوجدان تعصبا لوقعة واحدة. واما الاطار الاكدي فيقوم علي البدواة والتعصب فنشب الصراع بين الاطارين، في حين طور الاطار البابلي مفهوم سيادة القانون والعدالة الاجتماعية في قوانين حمورابي.. والشخصية العراقية حية لانها حصيلية صراع مستمر لكل تلك الفواع التي لم يتم توحيدها وصهرها وتآليف كل منسجم منها فتعايشت في وجدانها قيم مختلفة تتهاون حيناً وتتنازع احيانا كثيرة فهي ليست مصابة بانشطار الوجدان كما يتصور البعض وانما تقوم بادوار متعددة ومتناقضة. لهذا نصف سلوكيتها بالجدبية لانها تعمل ضمن قواقع متعددة لغوية وقبيلية ومحلية ومدينة (من المدينة) وطائفية وايديولوجية. وهي تنتقل من قوقعة إلى اخري بفجرة واحدة كما تفجر الضفدعة فتغير مواقعها ازاء القضايا الخاصة والعامه.. وهذه الشخصية تتبالغ في تمجيد الذات وتعتز بكرامتها وتندفع اندفاعات مفاجئة وتتفجر انفجارا غير متوقع. ومن هذه الخصائص الاستمرار في محاولة الحفاظ علي الحدود النفسية والاجتماعية التي تفصل الفواقع بعضها عن بعض بالجوء إلى مصطلحات قشرية وسطحية من المجاملات التي تحول دون نشوب نزاع مباشر بين شخص واخر ينتميان إلى قوقعتين متنازعتين والتي ترمز إلى الصداقة في المظهر ولكنها تحافظ علي المسافات والابعاد النفسية وتجنب طرح المواضيع الملتهبة ومناقشتها..

تلك خلاصة نظرية الطاهر التي نشرها في السنة الثانية من حكم البعث اي قبل تقولب النظام إلى شمولية متكاملة تزداد ضراوة في القمع والبطش وقبل ان تعاني الشخصية العراقية من اهتزازات كبيرة ورجات خطيرة جراء الحاجة المادية والحروب، والقمع. واري ان في تشخيصات باحثنا الكبير للخصائص والصفات قدرا كبيرا من الحقيقة. ومن جهة اخري فعند شعوب اخري بعض الصفات المذكورة اي انها ليست حكرآ عراقيا، كما ان الباحث لم يشخص لنا العوامل الاهم والاكثر حسما في تكوين الشخصية العراقية، ولم يعط ظاهرة العنف السياسي حقهما من المعالجة رغم اشاراته إليها.

واذكر ونحن بصدد الشخصية العراقية ملاحظة ذكية جدا للجاحظ اذ يقول: ان العلة في عصيان اهل العراق علي الامراء هي انهم اهل نظر وذو فطن ثاقبة ومع النظر والفضنة يكون التقييب والبحث ومع التقييب والبحث يكون الطعن والقذح والترجيح بين الرجال والتميز بين الرؤساء واطهار عيوب الامراء.. وما زال العراق موصوفا بقلة الطاعة وبالشقاق علي اولي الرئاسة.

ونقرأ في كتاب العالم الاثاري العراقي الشهير طه باقر النقاعة إلى دور البيئة الطبيعية العراقية في تكوين الشخصية العراقية ولاسيما الفيزيانات التي كانت متتابعة وتدميرية للمحاصيل والبشر والحيوان، هذا من جهة ومن جهة اخري، الافتقار إلى المواد الأولية التي كانت الحضارات العراقية في حاجة إليها للبناء وال عمران والتسلح كالححاس والحديد ومختلف انواع الاخشاب والاحجار المتنوعة ومنها الاحجار الكريمة واسباهاها. ففي ما يخص الامر الاخير فانه يفسر الدافع الاول لغزوات الملوك والحكام العراقيين للسيطرة علي طرق التجارة، فوصل سرجون مؤسس الدولة الاكدية إلى سواحل الخليج في البحرين وعمان وخلف هناك اثاره. اما عن ثورات الرافدين وخصوصا دجلة فاننا نقرأ لطفه باقر في كتابه مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ما يلي:

.. ان كلتا الحضارتين (اي المصرية والرافدية) حضارتا ري، بيد ان نظام الري في حضارة وادي الرافدين اصعب تنظيماً وضبطاً وأكثر مشاكل بحيث لا يسع المنتبغ لتاريخ هذه الحضارة الا ان يقدر ما بذله سكان العراق القدماء من جهود جبارة للسيطرة علي نهريين من اشد انهار الدنيا عنفاً.  
وفي وسع المنتبغ لسير الحضارة في كل من وادي النيل ووادي الرافدين ان يجد صورة هذا الجانب من بينتهما الطبيعية ولاسيما نظام الانهار والري في الكثير من مقوماتهما الفنية والادبية والسياسية. واذا جاز ان ينسب إلى الحضارات مزاج أو طابع مميز امكنا القول ان مزاج حضارة وادي النيل يتسم بطابع الاعتدال بالانجازات وشعور الطمأنينة بالسيطرة علي البيئة بحيث جعلت رأس المجتمع إليها - اي انها الهت ملوكا وجعلتهم آلهة في الحقيقة وليس من باب التقديس أو المجاز. وبالمقابلة مع ذلك، كان الطابع العام لمزاج حضارة وادي الرافدين العنف، والتشاؤم والتوتر، والتأزم، وتوقع المفاجآت، وتطغي عليها الناحية العملية في الحياة. ومع ان بعض الملوك في حضارة وادي الرافدين قد قدسوا والهوا بيد ان الملك ظل يتصف ببشريته اي اخر ادوار تلك الحضارة فلم يميزه عن البشر الاخرين سوى ان الآلهة التي يبدها حكم الكون قد انتدبتة أو فوضته ليحكم الناس بالنيابة عنها. وكان اليون شاسعا في نظرة كل من الحضارتين إلى نظام الحكم. فالملوكية ونظام الحكم في حضارة وادي النيل قد وجدنا منذ بدء الخليقة، اي منذ ظهور الآلهة. وكان اول إله خلق ملكاً في الوقت نفسه والفرعون إله من الآلهة. اما نظام الملوكية في حضارة وادي الرافدين فكان شيئاً طارنا ليس من اساس نظام الخليقة بل نشأ علي اثر ازمة وقعت بين الآلهة في تنازعها علي سيادة الكون، واضطرار مجموعة الآلهة إلي انتخاب احد الآلهة ليكون ملكاً عليها وتنازلت له عن سلطاتها، وعمد كبير الآلهة إلي خلق الانسان ليتولي خدمة الآلهة (بعدها).. وكان هو الذي يختار الملك أو الحاكم لينوب عنه في حكم البشر كما ذكرنا..

ويضيف العالم التاريخي ان الاساطير في الحضارتين كشافتان، فمثلا تمت عملية الخلق في اساطير وادي النيل بهوء بمجرد ارادة الآلهة، ولكن الخليقة في اساطير وادي الرافدين حدثت بالصراع والاحتراب ما بين الآلهة.. والصفة الغالبة لآلهة وادي الرافدين القوة والبطش والتقلب، وبينما تخلو اداب حضارة وادي النيل من اخبار الطوفان فانه موضوع رئيسي في آداب حضارة وادي الرافدين ومن ذلك ما يرد في ملحمة جلجامش. وأود التوقف قليلا لدي دلالات الملوك الآلهة فان بعض الباحثين العراقيين ومنهم الأستاذ باقر ياسين يسردون وكان جميع الملوك العراقيين القدماي كانوا آلهة في حين يقول طه باقر ان بعضهم لا جميعهم كان بهذه الصفة ثم لم ينفرد العراقيون بالملوك الآلهة بل ان الآلهة الملوك في حضارة وادي النيل القديمة كانوا جميعا هكذا وان الملك كان لها حقيقيا عندهم لا لها من باب المجاز. ونضيف ان عقيدة أو نظرية التفويض الالهي للملوك العراقيين القدماي ومن بعدهم للخلفاء العباسيين كانت عقيدة منتشرة في بلدان اخري من اسيا وفي العصور الوسيطة في اوربا.

لقد نشر الأستاذ باقر ياسين في (الزمان) سلسلة مقالات هامة وجادة عن ظاهرة العنف السياسي وتاريخها في العراق ولكن هنا ايضا وكما اري تحتل المنهجية احيانا كما مع الوردى والطاهر.

اجل ان العنف هو الطابع الغالب في الحياة السياسية العراقية قديما وحديثا. ولهذا العنف جذوره التاريخية والاجتماعية والثقافية والطبيعية. فاذا قارنا العراق ببلد كمصر أو المغرب أو الاردن أو عُمان في العهد الحديث فان مساحة ودرجة العنف السياسي فيها اقل ولا تشكل ظاهرة خاصة. ولكن في تاريخ اكثر البلدان العربية حروبا ومذابح ومنازعات دموية. ولم ينفرد العراق بمستبدية من اهل البلد وطغيانهم والادق ان نخصص بالدرجة الاولى التاريخ الحديث اذ يبدو العراق ضاربا رقما قياسيا في العنف السياسي ولاسيما في العهد الراهن. ومن جهة اخري فاننا لا ينبغي ان ننسب مذابح وانتهاكات كبري اقترفها غزاة ومحتلون اجانب علي ارضنا إلي الشخصية العراقية اذا اذ قصدنا تأثير تلك الاحداث الرهيبة وعواقبها علي السكان. فمثلا لماذا نستدل علي العنف العراقي بما اقترفه هولاءو وتيمور لك في العراق ومن قبلهما الحجاج والخلفاء الامويون وهم غير عراقيين؟ ولماذا نستشهد للدلالة علي العنف العراقي بما اقترفه السلطان مراد أو الصوفيون ضد الشيعة أو السنة في العراق؟ وما دخل الشخصية العراقية في المذبحة التي نفذها الولاة العثمانيون بحق المماليك؟ أقول هذا لا لانكار ظاهرة العنف السياسي في حياتنا أو التلطيف من بشاعتها وخطورتها وانما لملاحظة ان لا ندلل علي هذه الحقيقة أو نستشهد بما لا ينفرد به التاريخ العراقي وحده، اما ان نسردها كل الوقائع لتبين اثارها السلبية علي الشخصية العراقية حتي ان لم تكن الوقائع من فعلها هي فان ذلك ضروري.

واود ايضا ان لا يتصور بعض القراء مما يكتب ان وقائع العنف الوحشي لم تظهر الا في العراق. فلنذكر حروب المدن الاغريقية والفظائع الرومانية وجرائم الصليبيين بحق مسلمي الشرق ومسيحييه علي السواء. واما محاكم التفتيش فان جرائمها لا نقل عن احوال سراديب وزنزانات قصر النهاية عام 63 وعام 69 مثلا، فقد استخدم التفتيشيون في ملاحقة من اتهموا بالهرطقة اساليب التقييد بالحديد، والحرمان من الطعام والنوم وتثبيت المتهم علي حصان من الخشب والشد علي قدمي المتهم بانقال من الحديد مع ماعدنتهما ببطء.. وهذه هي التخشبية وهناك التحريقة وهي اجبار الشخص علي المشي علي الجمر والتضفيرة وهي ضفر اصابع اليدين والقدمين بحبل رفيع ثم الشد عليها بتؤدة بحيث تنعقد الاصابع كما ينعقد الشعر المضفورة وهناك امتحان الماء وهو تغطية وجه المتهم بالقماش بعد تثبيته علي التخشبية وصب الماء عليه بما يمنع الضحية من التنفس إلي حد الاختناق الخ.. الخ..

لقد عالجت في كتابي حدث بين النهريين الذي طبع طبعة خاصة عام 1994 ظاهرة العنف السياسي العراقي وذلك في باب معالجة عقيدة الكفاح المسلح والعنف الثوري في سياسة حزب القيادة المركزية بين 1967 وبداية 1969 وقد اشرت إلي دور العوامل التاريخية والتركيبة السكانية الفيسفاسائية وما حل بالعراق من فيضانات وطواعين متلاحقة وغزوات واحتلالات اجنبية مدمرة ودموية. غير انني اعتبرت واعتبر اليوم ان العوامل السياسية والايديولوجية هي العوامل الحاسمة في صبغ حياتنا السياسية بالعنف الحاد وخصوصا منذ نزول الجيش في انقلابات عسكرية والتناحر السياسي العقائدي بعد ثورة 14 تموز. ومن شواهدي مثلا انه برغم العنف الحكومي الوحشي الدموي ضد الشعب الكردي منذ العشرينات فان العراق الحديث لم يعرف نزاعا كرديا عربيا بين السكان انفسهم اي في قاعدة المجتمع وانما بالعكس كانت مشاعر اكثر ابناء الشعب تتعاطف مع الاكراد ولنذكر مثلا هوسة العشائر العربية الجنوبية ثلث الجنة لكافة احمد في اوائل العشرينيات. وانما العقليات العنصرية لبعض الاحزاب والمنظرين العرب القوميانيين هي التي كانت تتعمد نشر النوازع المفارقة. وعلينا ان لا ننسب جرائم الحكم وخطاياهم في العهود الشتي إلي طبيعة عراقية متأصلة وانما هي السياسية والايديولوجيات الكلائية التي تضلل من وقت إلي اخر شرائح من ابناء الشعب. فاذا اقترن مثل هذا النشاط بطول الكبت الحرمان والظلم فان الجماهير قد تندفع في ظروف معينة في موجة غوغائية دموية عنيتية كما وقع في اليومين الاولين من ايام 14 تموز واعني القتل والسحل. وهنا ايضا كان هناك توجيه أو تشجيع أو علي الاقل صمت مريب من بعض قادة الثورة ونداءاتهم من الاذاعة إلي الشعب. وبالعكس من هذه الظاهرة مناظر التأخي الديني والمذهبي بين العراقيين في وثية كانون 48 أو في ثورة العشرين. واقتصد ان المسؤولية الحاسمة في العنف السياسي العراقي تتحملها القيادات السياسية، حاكمة ومعارضة، لاسيما تلك التي تحمل عقليات شمولية مغلقة لا تري غير حدودها. وبالطبع فان الحكام هم الاكثر مسؤولية لان بأيديهم مفاتيح السلطة واتخاذ القرارات والاجراءات.

ان الايديولوجيات الكلائية المغلقة بجميع الوانها تقود إلي العنف والانتهاك لانها تؤمن باحتكار الحقيقة وترفض الاخر حد محاولة الغائه. فاذا امتزج هذا بالشهوة الشخصية للسلطة فهناك الطامة الكبرى كما يقال. ولنذكر جرائم ستالين التي لم تكف باشكال التعذيب الجسدي وانما ذهبت إلي حد اذلال المتهم ومحاوله مسخ شخصيته وغسل دماغه لتاييم عن اساليب اخذ الاقارب رهائن واستخدام الاغصاب للتحويق والارهاب والانتقام.. وثمة جرائم الثورة الثقافية في الصين وما اقترفه خمير الحمر في كمبوديا. وقد اخذ بعض حكام العالم الثالث (او الرابع؟) ومنها لدينا في العراق بالكثير من تلك الاساليب وطبقوها شر تطبيق من تعذيب وحشي، وتجويز جماعي، وحروب ابادة في الانفلال، والاعدامات الاعتيابية الجماعية واخيرا قطع الاسن والرؤوس والوشم وصلم الاذان وغيرها من نماذج البربرية.

وهنا لا بد ان نميز بين اشكال السلطات المستبدة أو اشكال الطغيان الفردي أو العائلي أو الحزبي والحزبي الايديولوجي أو طغيان قد يكون خليطا. فهل استبد الخلفاء العباسيون وطغوا لغرض عقيدة ما (باستثناء المأمون وخلفيه والمتوكل - اي محاولة فرض الاعتزال بالقوة وبعندن تقبيل المعتزلة في عهد المتوكل). وهل كانت تهم الزندقة واضطهاد الادباء والمفكرين تحت ستارها للدفاع عن عقيدة دينية ام تصفية حسابات مع نقاد السلطة؟ وهل لم يكن هوس الحكم والاستئثار به هو الدافع الحاسم للطغيان عند الاكثرية الساحقة من الخلفاء العباسيين والامويين وهل هدف فرض عقيدة ما كان الهدف من غزوات الاكديين والاشوريين واستبداد الاكثرية من حكامهم. وهل كان استبداد نوري السعيد من جنس الطغيان الشمولي الراهن. ان هذه وغيرها نقاط تتطلب المزيد من الدراسة والنقاش. لقد توصلت شخصا منذ بداية الثمانينيات إلي ان التغيير السياسي الاجتماعي عندما يتم بالعنف يجر وراءه سلسلة من العنف. واورد رأيي هذا الاستاذ خالد القسطيني في كتابه عن اللاعنف الصادر عام 83 وكان قد قابلني بباريس قبل ذلك وذكرت انه حتي اكثر الثورات العنيفة عدالة ومشروعية تتورط بعد الثورة في منطق العنف في اساليب الحكم. وهذا ما اكرره باستمرار حتي انني اري اليوم انه كان الافضل للبلاتشفة الروس ولروسيا لو استنفدوا الامكانيات السلمية الهائلة التي توفرت لهم بعد ثورة شباط (فبراير) لعام 1917 بدلا من الاصرار علي حمل السلاح بعد شهور قلائل رغم ان اكثرية اللجنة المركزية لم تكن مقتنعة بذلك ولكن لبينين اصر اصرارا علي الثورة المسلحة، وما ان انتصرت حتي قمع المشاركون الاخرون في الثورة بحجة حرب التدخل الامبريالية ضد الثورة. وما ان انتهت تلك الحرب حتي شمل القمع النظامي حزب البلاشفة الحاكم نفسه فلا منابر ولا معارضة داخلية وكل هذا مهد السبيل لحكم ستالين الشمولي وطغيانه الدموي. وقد ادي اقحام الحزب العقائدي باشكاله في شؤون الثقافة والفن والادب إلي انتشار عقلية العنف وممارساتها في هذه المجالات ايضا وصارت الولوات العقائدية والحزبية حكما ومعيارا لتقييم المفكر والاديب والشاعر والفنان فيرتفع الثائوي ويُهشم المبدع الحقيقي بحسب الولاءات. ولا ننسي المساطر الجدانوفية التي كانت ترجح اهم الروائع الروسية والعالمية واتهامها بالثقافة البرجوازية المعادية للاشتراكية الواقعية التي كانت تعني ثقافة الشعب الكادح ونجد اليوم وضع الابداع والمبدعين العرب في قفص الاتهام بالكفر والزندقة أو الفسق والاباحية الجنسية والتحريض علي قتلهم باسم الدين.

لقد عانت اوربا الغربية كثيرا من استبداد الملوك والحروب الدينية والمذهبية ومن محاكم التفتيش. ولكن الاحداث سارت باتجاه اخر بفضل المفكرين التنويريين والاخذ بالعلمانية اي فصل الشؤون الدينية عن شؤون الحكم والدولة. ومع ذلك كان الثمن غالبا جدا لان الثورة الفرنسية اقترنت بالكثير من الانتهاكات واعمال العنف الوحشي وقمع الرؤوس بلا حساب. واحتاجت فرنسا واوربا الغربية إلي وقت طويل لتستقر الدولة علي اسس ديمقراطية برلمانية وسريان مبدأ الفصل بين السلطات وسيادة القانون واحترام القضاء واستقلاله. وكان للمفكرين والفلاسفة والكتاب المتنورين دور اساسي في ترسيخ مفاهيم التسامح والمواطنة وسلطة القانون. ان العواقب الوخيمة للطريق العنفي في التغيير السياسي الاجتماعي لا تقرره القوي المضطهدة (بتنح الهاء) أو المعارضة بقدر ما تقرر القوي الحاكمة. فتورة 14 تموز (يوليو) كانت امرا محتما بعد ان اعلق الحكم الملكي منذ اواسط 54 كل منافذ الحريات وفرص الاصلاحات التدريجية السلمية. علي ان قوي المعارضة كانت حتي قبل ذلك التاريخ تستهين بالطريق الاصلاحى التدريجي وكنا وحتى الاكثر اعتدالا (كالوطني الديمقراطي) نبالغ في بخس الخطوات والاجراءات الايجابية لبعض الحكومات ومثلا في عهد وزارتي الجمالي وارشد العمري عام 54. وفي ما بعد ظللنا نحارب حكومة عبد الرحمن البزاز ونستخف باعدالها النسبي بدلا من تتمين الخطوات الطبية.

واما بالنسبة لآفاق تطور العراق في الظروف والايوضاح الحالية وهل ثمة افق لاي انتقال سلمي إلي عهد الديمقراطية الدستورية البرلمانية والتداول السلمي للسلطة فان هذا الموضوع مستقل في مقال قادم.